المحاضرة الخامسة

الثقافة و الحضارة

الثقافة والحضارة هما مفهومان اختُلِف عليهما من قبل الدارسين والباحثين، حيث إنّه بعد تعريفهم للمفهومين واستخلاص الفروقات بينهما، نتج عن هذا الأمر ثلاثة آراء سنذكرها بعد التعريف بكل مفهومٍ على حدة .مفهوم الثقافة :

الثقافة بالمعنى المطلق عند العرب، وكما وردت في المعاجم جاءت من اللفظ (ثقف)، ويطلق على الفهم والإدراك والحذق، فعند القول (هو غلامٌ ثقف) تعني أنه ذو ذكاءٍ وفطنة. أمّا بعد إضافة كلمة أُمّة للثقافة (ثقافة أمّة)، فإنها تعني التراث الحضاري والفكري للأمّة من كافة الجوانب العمليّة والنظريّة التي تميّز تلك الأمّة، حيث يشكل هذا التراث ثقافة الأمة بطريقةٍ مترابطة ومتداخلة مشكلةً محيطاً وإطاراً يحكم الأسر والأفراد والمجتمع بشكلٍ عام. عرّف بعض الباحثين الثقافة على أنها أسلوب الحياة السائد في الأمّة، بحيث إنّ الإنسان يتشرّب هذه الثقافة منذ اللحظات الأولى لميلاده، مكوّنةً تقاليده وعاداته، ولن يحظى بأي نوعٍ من الرضا إن تجاوز هذه الثقافة المتوارثة، حتى إنّه يمكن أن يتجاوز الأمر من عدم الرضا إلى نوعٍ من الأذى. مفهوم الحضارة الحضارة عند العرب تقابل البداوة، حيث إنّ الحضارة هي حياة المدن المقابلة لحياة الصحراء في البداوة. توسّع مفهوم الحضارة عبر العصور ليصبح المعنى يشمل مدلولاً آخر، وهو التعبير عن رقي المجتمع عن المستويات البدائيّة، ويطلقون على هذا المجتمع اسم (مجتمع متحضّر)،

وهذا المجتمع يعرّف على أنّه المجتمع الذي له قيمة روحيّة رفيعة، وأساليب ماديّة متطوّرة في سبيل مواجهة الحياة الطبيعيّة. الفرق بين الحضارة والثقافة، والعلاقة بينهما هناك العديد من الآراء حول الفروقات بين الحضارة والثقافة، وهذه الآراء هي: الرأي الأوّل يعتبر أنّ مفهوم الحضارة أوسع وأشمل من مفهوم الثقافة، بمعنى آخر أنّ الحضارة تشمل الثقافة، بينما الثقافة لا تشمل الحضارة، حيث إنّ الحضارة هي مفهومٌ شامل للجانبين (المادي والمعنوي)، بينما الثقافة فهي تقتصر على الجانب المعنوي بما يحويه من تراثٍ فكري. الرأي الثاني جاء مخالفاً للرأي الأوّل، فهو لا يفرق بين المفهومين، ويعتبر أنّ مفهومي الحضارة والثقافة متساويان. جاء الرأي الثالث متفرّداً بالحضارة، حيث يعتبرها –أي الحضارة– سبباً شاملاً لما توصّل إليه أيُّ مجتمعٍ من ابتكارات واختراعات. ومن هنا تأتي نتيجة تلك الآراء لتوضيح العلاقة الوثيقة بين مفهومي الثقافة والحضارة، حيث إنّه يمكن أن تكون الثقافة شيئاً والحضارة شيئاً آخر، وإمّا أن تكون الثقافة عبارة عن ركيزة لقيام الحضارة، وذلك عندما تكون الثقافة هي الجانب المادي، فيما الحضارة هي الجانب المعنوي.

مفهوم الحضارة والثّقافة والمدنيّة :

اختلفَ المُفكِّرون حول تحديد مفهوم واضح لكلٍّ من الثّقافة، والمدنيّة، والحضارة، وظهرت آراء مُختلِفة حول ما تعنيه كلُّ كلمة، وكان من الصّعوبة تحديد معنىً واحد وقطعيٍّ لأيٍّ منها؛ حيث إنّنا نَجِدُ العشرات من التعريفات لكلّ مُصطلَح منها، على الرّغم من وجود بعض المعاني غير المُسوَّغة؛ ولهذا كان لا بدّ من توضيح بسيط لكلٍّ من الثقافة، والحضارة، والمدنيّة مفهوم الحضارة الحضارة في اللغة هي الإقامة في الحَضَر، والحَضَر هم من يقيمون في المُدُن، وكلمة حَضَر هي عكس كلمة بَداوة، أمّا في الاصطلاح فإنَّ الحضارة هي جملة المظاهر التي تُعبِّر بواسطتها الأُمَمُ عن ثقافاتها، والتي من خلالها تقومُ بحماية هذه الثقافة؛ حتى تستطيعَ توريثَها للأجيال القادمة، وتُعتبَرُ الحضارة شاملةً لكلٍّ من الثقافة، والمدنيّة، فهي

تقومُ على رابط قويٍّ بين كلٍّ منهما، وإنّ أيّ إهمال لأيٍّ منهما قد يُؤدّي إلى ضَعْف، ولربُّما يكون بدايةً لانهيار الحضارة. اشتُقَّت كلمة الحضارة من الكلمة اللاتينيّ ، وتعني نَمى أو حَرَث، وتَقتصرُ دلالات هذه الكلمة في العصور السابقة على تنمية الأراضي ومحاصيلها، وحتى تزدهر الحضارة، لا بدّ من توفُّر بعض الشروط، منها: الاستقرار: يُعتبَر الاستقرار من أهمّ شروط تكوين الحضارات وازدهارها، ويُقصَد بالاستقرار عَدمُ الانتقال من منطقة إلى أخرى. التعاون: إنَّ استقرار الإنسان في منطقة مُعيَّنة؛ من أجل استثمارها، يَتطلَّب منه أن يكون مُتعاوِناً مع الآخرين، وهذا التعاون هو الذي يُؤدّي إلى قيام الحضارات وازدهارها. الكتابة: إنَّ اختراع الإنسان للكتابة يُعَدُّ من أهمّ شروط الحضارة وتكوينها، فمن خلال الكتابة استطاع الإنسان الاتِّصال بالآخرين، ونَقْل كلِّ أفعاله وأقواله إلى الأُمَم القادمة، كما أنَّه استطاع حِفْظ كلِّ شيءٍ قام بإبداعه، والمكاسب الجديدة التي حقَّقها. مفهوم الثقافة الثقافة في اللغة مأخوذة من الفعل ثَقُف، وتُطلَق هذه الكلمة على الفِطنة، والعلم، والذكاء، أمّا في الاصطلاح فإنَّ الثقافة هي جُملة المعارف، والفنون، والعلوم لدى مُجتمَع مُعيَّن، بالإضافة إلى الرقيّ في السياسة، والأفكار، والقانون لهذا المجتمع، وذَكَرَ العديدُ من علماء الاجتماع مفاهيم مُختلِفة للثقافة؛ فمنهم من عرَّفَها من حيث جانبها المادّي، و منهم من عرَّفَها من جانبها الفِكريّ، ومنهم من جَمَع بين الجانبين، إلّا أنَّ أقدمَ تعريف للثقافة هو الذي وَضَعَه إدوارد تايلور؛ حيث عرَّفَ الثقافة على أنَّها كلُّ ما يَشتملُ على العقائد، والمعرفة، والعادات، والأخلاق، وكذلك الفن، والقانون، وغيرها من الأمور التي يَكتسِبُها الفرد. إنَّ أحدث تعريف للثقافة هو التعريف الذي جاء في إعلان مكسيكو عام 1982م، حيث نصَّ على أنَّ الثقافة هي جميع السمات المادّية، والروحيّة، والعاطفيّة، التي تُميِّزُ أيَّ مُجتمَع عن غيره، وهي تَضمُّ طريقة حياة هذا المُجتمَع، وفنونه، وآدابه، بالإضافة إلى عاداته، وتقاليده، وحقوق الإنسان الأساسيّة فيه، وتُعتبَرُ الحياة الاجتماعيّة مُترابِطة ومُتكامِلة في المُجتمَع من الناحية السلوكيّة، وكذلك الأفكار، والنُّظُم، التي تُشكِّل بدورها ثقافة المُجتمَع، وللثقافة خصائص مُهمّة،

فهي إنسانيّة، مُكتسَبةٌ، كما أنَّها اجتماعيّة، وتكامُليّة، ومُستمِرّة. مفهوم المَدنيّة المدنيّة هي الجزء المادّي من أيّ حضارة، كالعمران، والترفيه، ووسائل الاتصال، وقد ظهرت المدنيّة نتيجة التفاعُل الحاصل بين العلوم وتطبيقاتها من ناحية، وما أنتجته الأمّة من ناحية أخرى؛ وهذا ما جعلها تَرتبِطُ بالمجالين: الاقتصاديّ والصّناعيّ، ويَرى البعض أنَّ المدنيّة مُرادِفة للحضارة؛ فهم يَرون أنَّها تحملُ الجانب المادّي والمعنويّ للحضارة، كما أنّهم يَعتبرونَها جملة الرقيّ في الصناعة والزراعة في المُجتمَع إنَّ المَدنيّة جزءٌ من الحضارة، وهي لا تحتاج إلى شَرْح مُفصَّل في معناها كما في الحضارة والثقافة،إلّا أنّنا نستطيع أن نَذكرَ أنَّ المدنيّة هي تراكُم الإنجازات الإنسانيّة من الناحية المادّية لمُجتمَع مُعيَّن في فترة زمنيّة مُعيَّنة، وهذه الإنجازات تَهدِفُ إلى تسهيل وتيسير حياة الإنسان، ضمن العقيدة السائدة في مُجتمَعه. علاقة الحضارة بالثقافة والمَدنيّة بعد تحديد مفهوم كلٍّ من الحضارة، والثقافة، والمَدنيّة، لا بدّ لنا من ذِكْر العلاقة بين الحضارة والثقافة، وكذلك العلاقة بين الحضارة والمدنيّة، من خلال النّقاط الآتية: العلاقة بين الحضارة والمدنيّة: ترتبط كلٌّ من الحضارة، والمَدنيّة ببعضهما البعض، من ناحية جَذْر كلِّ كلمةٍ منهما (حَضَرَ، مَدَنَ)، وإنَّ أيَّ مُجتمَع يريدُ التعبير عن حضارته، لا بدّ له من أن يستكملَ شروط الحضارة، والتي من أهمّها الإقامة في المُدُن أو القرى، وهذه الإقامة هي التي تجعلُ الحضارة والمدنيّة مُتقارِبتان ومُرتبِطتان ببعضهما البعض، ولا تَقتصرُ العلاقة بين الحضارة، والمَدنيّة على جَذر كلِّ كلمة منهما فقط، وإنّما تَرتبِطان ببعضهما البعض بشكل وثيق؛ حيث إنّ الحضارة شاملة للمَدنيّة؛ فالحضارة لها جانبان: ماديٌّ، ومعنويٌّ ، والمدنيّة هي الجزء الماديُّ منها. العلاقة بين الحضارة، والثقافة: تُعبِّر الثقافة عن الناحية المعنويّة، والروحيّة لمُجتمَع ما، والحضارة لها جانبان: معنويٌّ، وماديٌّ؛ لذا فإنَّ الحضارة شاملة للثقافة، وقد ظهرَت آراء مُختلِفة حول علاقة الثقافة بالحضارة، من أهمّها: يَرى البعض أنَّ الثقافة والحضارة لهما نفس المعنى؛ لذلك استخدموا مُصطلَح ؛ للتعبير عن الحضارة والثقافة معاً، دون أن يكون هنالك فرقٌ بينهما. يَرى البعض أنَّ الحضارة

هي الجزء الماديُّ من الثقافة، وقد ظهر هذا الرأي عند الباحثين ماكيفر، وآدم. يَرى البعض أنَّ الثقافة هي جزء من الحضارة بشِقَّيها: الماديِّ، والمعنويِّ، وهذا الرّأي هو السائد في الغَرْب. الحضارة والثقافة الإسلاميّة هناك علاقة وثيقة بين الحضارة الإسلاميّة، والثقافة الإسلاميّة؛ فالثقافة الإسلاميّة تُوجِّهُ وتضَبِطُ المعرفة العلميّة، وتُؤثِّر في الحضارة من خلال العقيدة الإسلاميّة، أمّا الحضارة الإسلاميّة فإنَّها تُغيِّرُ من الشكل الذي تُجسَّد فيه الثقافة الإسلاميّة من الناحية المِعياريّة، دون أن يُؤثِّر هذا التغيير على قِيَمِها؛ لذا فإنّ تأثير الحضارة الإسلاميّة في الثقافة هو تأثيرٌ محصور في الصورة، أو الشكل فقط

علاقة الإسلام بالثقافة و الحضارة :

يمثل فهم الطبيعة البشرية والذات مدخلاً مهما في تحديد طبائع الوجود ومكان الإنسان في الوجود، كما أنه نقطة فارقة في تحديد المنهج الذي يتسق مع البشر في حياتهم وكيف يقيمون علاقاتهم مع بعضهم البعض، وقد يكون سؤال الإنسان وتحديد ماهيته هو السؤال الجوهري لكل حضارة نبتت أو ذُبلت، وعليه ودون إغراق في المسألة نريد أن نتحدث عن ثلاثية الثقافة والحضارة والإسلام. ودخول الإسلام في المعادلة هنا ليس من قبيل الدّين المجرد فللإسلام طابعه المختلف عن الأديان وله نسق وتصوّر متميز عنها، فعلاقة الأديان المجردة بالحضارة علاقة سطحية وتصوّر الأديان المجرد للحضارة أو انخراط بعض المتدينيين من تلك الأديان في أي نمط حضاري ليس ناجماً من فكرة الدّين المجرد بل ناجم من فطرتهم البشريّة التي تفرض عليهم ممارسة نوع من الحضارة لأنهم لا يستطيعون معاكسة تيار الفطرة أو سنة الله، وحديثنا عن الحضارة هنا نعني به العلم والمادية والطبيعة أو بتعبير بيجوفيتش الشهير.. العالم الخارجي.

إن الحديث عن الحضارة هو حديث عن المادة، أي أن نمط الحضارات هو نمط التقدم المادي الخارجي، وهو نمط العلم والإفادة من الطبيعة واستخدامها في خدمة الحاجة المادية للبشر، ولما تحدث القرآن عن تسخير الأرض للإنسان بما فيها من خيرات وموارد مكنونة وتحدث بالمقابل عن العلم والعقل، كان القرآن يعني بالضبط هذا الجانب الحضاري العلمي، الجانب الأرضي في الحياة البشرية. والبشريّة متى ما اكتفت بهذا الجانب الواحد فإنها أيضاً ستضل وتتيه، فما هذا الجانب إلا نمط مفرد من الحياة الإنسانية التي تمتد أكثر من ذلك وأعمق أطول.

إن المقارنة بين الثقافة والحضارة هي مقارنة نتج إفرازها أصلاً من الجدل الدائر حول ماهيّة الإنسان، بل إن مجرد وجود مصطلحي الحضارة والثقافة في القاموس البشري والفلسفة البشرية هو دليل على نضج عميق في الفلسفة الإسلامية لتعريف الإنسان، ولو وُجد مصطلح الحضارة وحده دون مصطلح الثقافة لدعّم ذلك تصور الفلسفة المادية كما لو وجد مصطلح الثقافة وحده دون الحضارة لدعّم ذلك فلسفة الدّين المجرد، أما أن يوجدا معاً فذلك بذاته تعبير عن جذور الفلسفة الإسلامية عند البشر عبر التاريخ.

إنّ كلاً من الثقافة والحضارة يمثلان خطين مختلفين في الذات الإنسانيّة، حيث تمثل الثقافة الروح والدين والفن والقيمة والمُثُل، أما الحضارة فتمثل نمطاً مختلفاً يجمع العلم والطبيعة والمادة، وبصورة أكثر دقة تمثل الثقافة الخُلود والثبات أما الحضارة فتمثل التجدد والتطوّر، تمثل الثقافة السماء أمّا الحضارة فتمثل الأرض، تمثل الثقافة الوجدان وتمثل الحضارة العالم الخارجي المشهود. كذلك إن مجرد معرفة الخطأ والصواب تنتمي للحضارة، أما القدرة على إنفاذ الصواب وتجنب الخطأ فتنتمي للثقافة، فالمعرفة نمط علمي والإنفاذ والتجنب نمط ديني والعلم ينتمي للحضارة والدين مصدر الثقافة.

بالتأمل في تلك الثنائيات التي تبدو وكأنها متناقضة متناثرة في الذات الإنسانية، فإنه لا تستقيم الحياة إلا بالعالمين معاً (عالم الحضارة وعالم الثقافة) ، كما أن الإنسان يستقر بهما ويضطرب بأفتراقهما في الطريق، والأمم التي إنهارت بنيتها فرطت في أحد النمطين دون الآخر . فما موقف الإسلام من هاتين الفكرتين المركزيتين النابعتين من فلسفة الذات البشرية؟.

الرؤية الإسلامية نابعة بالأساس من تعريف صلب متين رصين للإنسان وهذا التعريف الدقيق هو الذي نشأت عبره الفكرة الإسلامية لكل من الحضارة والثقافة ومن ثم تحديد المنهج الذي يتلائم مع الفطرة البشرية، فإذا كان تعريف الثقافة بأنه منظومة من (القيم والأخلاق والفنون والدين) وهي تمثل عالم مختلف عن عالم الطبيعة الذي تعبر عنه الحضارة (العلم والمادة). فإذا كانت كل من الثقافة والحضارة يمثلان الأرض والسماء، فإن الإسلام هو كليهما معا، والمتأمل في القرآن يجد ذلك جليّاً بل بسرديّة

مذهلة وجميلة تبيّن مدى عمق النظرة الإسلامية، فالقرآن لم يتحدث عن عالم القيم وحده كما لم يتحدث عن عالم العلم وحده بل إنه يدور في فلك متناسق يدمج بين الحضارة متمثلة العلم وبين الثقافة متمثلة في الدّين.

الإسلام هو الثقافة التي تبني القيم الأخلاقية الرفيعة وتسعى للوصول للمُثل، كما هو في الآن ذاته إطار للحضارة دافع للنهضة الحضاريّة ومحرض على العلم .

إن الثقافة والفن والدّين مصطلحات تعبر عن عالم آخر غير عالم الطبيعة، عالم ذو مُثل وأخلاق وقيم وهو العالم الذي يسمى في الإسلام (الآخرة)، كما أن الحضارة تعبر عن العالم الطبيعي والمادي وهو ما يسمى في الإسلام (الدنيا) ، والقرآن عبّر عن الدنيا والآخرة (الحضارة والثقافة) بصورة تدمج بين العالمين وتمثل الذات الإنسانية نفسها، حيث قال الله : "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ". (القصص 77).

يقول بيجوفيتش معبراً عن رؤية الإسلام نفسه بالنسبة لهذه القضية متناولاً موضوع الزهد (في الإسلام قدرٌ من الزهد؛ ولكنه لم يحاول به أن يدمر الحياة، أو الصحة، أو الفكر، أو حب الاجتماع بالآخرين، أو الرغبة في السعادة والمتعة. هذا القدر من الزهد أُريد به توازنًا في غرائزنا، أو توفير نوع من التوازن بين الجسم والروح.. بين الدوافع الحيوانية والدوافع الأخلاقية).

من هنا فإن الإسلام هو الثقافة التي تبني القيم الأخلاقية الرفيعة وتسعى للوصول للمُثل، كما هو في الآن ذاته إطار للحضارة دافع للنهضة الحضاريّة ومحرض على العلم وإستخدام الطبيعة بما سخرها الله للإنسان، فالإسلام في الوقت الذي هو روحي يعبر عن الثقافة أيضاً هو مادي يعبر عن الحضارة، قال تعالى "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، (13 الجاثية).